الياس صالح اللاذقي

Élias Sâlih.

١٨٣٩ ــ ١٨٨٥ م

تبكي عليك اللاذقية كلما ... اغنى عليها الدهر في حدثانه
يبكيك تاريخ لها الفته ... بمدامع كاليوفق في همياته
ترتيك ما افتقرت اهاليها الى ... ركن اساس الشرع من اركانه

اسعد خليل داغر

حسب الرجل

هو الياس بن موسى بن سمعان بن صالح ، ولد جده الاعلى في غزة ، ونشب فيها ، واتخذ خدمة الحكومة مهنة وتوجه على منوالها ولده سمعان ونال مركزا ساميا ، وحاز صيتا بعيدا واسما حميدا ، فطلبه والي فلسطين وهو اذ ذاك محمد باشا ابو مرق فلبى وشخص الى يافا مقر الولاة ايامئذ . وهناك زاد شأنه وعلت مرتبته ، فصار رئيسا لكتاب الحكومة ، واتفق ان توجهت زوجته حنا كية ، « ملتزم اموال » لواء اللاذقية ، الى يافا ، اثر تحريض الطاغية الجزار ، عدرة آغا صاحب قلعة المرقب على زوجها ، فالانتهاء بالعصيان عليه وقتله . فاكرمها محمد باشا ابو مرق واحسن وفادتها واحلها اجل منزل وفاء لصنيع اتاه زوجها حين فر الى اللاذقية من وجه الجزار ايضا ثم سعى فزوج ابنتها سمعان صالح جد المترجم . فرزق منها ذكرين وثلث بنات وبينما هم في نعيم ناعمي البال ، اذ دار الزمان دورته ، فبغى على سمعان وقتل بامر حسن باشا والي دمشق الشام ، واستولت الحكومة على مقتنياته واملاكه في يافا والقدس . ولم يبق لدى اسرته سوى ما اخفي عن اعين الطغاة . ورجعت ارملته مع والدتها واولادها واخيها جرجس كبة الى اللاذقية ، حيث تزوج موسى ولدها ، ورزق خمسة اولاد ذكور بكرهم صاحب الترجمة .

نشاته

ولد في ٢٦ كانون الثاني عام ١٨٣٩ ، فلما ترعرع اظهر ميلا عظيما الى العلم .

فأخذ يدرس مبادئ العربية والافرنسية والايطالية . وما كاد يشب ، حتى اتقن هذه اللغات ، وبرع في العربية ايما براعة ، ونبغ فيها على صغر سنه ، واتخذها وسيلة للدخول بها في ميدان العمل والكسب ضدا لازر والده واسعافا لاخوته.

في عام ١٨٥٩ . انشأ المرسلون الاميركيون مدرسة في اللاذقية فقرأ فيها زمنا يسيرا . على احد معلميها يتقن اصول العربية وقواعدها على طريقة علمية وذلك ، كلما سمحت الفرص . ثم انقطع يشتغل بنفسه فعكف على دراسة كتب الامة اللغة والتفقه بها ، لا يرتد في نوبات الايام سوى مشكاة عزيمته المتلألئة بنور الهدى ولا يؤنسه في وحشة الظلام والليل إلا جليس الجد والاجتهاد ، حتى لم تفته شاردة ولا واردة ولا عرف مداخل اللغة وخارجها ووقف على دقائقها واسرارها وبلغ فيها شأوا بعيدا .

نبذة من الوظائف التي اشتغل فيها

في سنة ١٨٦٦ م تعين ترجمانا لقنصلية اميركة في اللاذقية واتقن التجارة مع الخواجات الياس وجرجس صوايا . لكنه لم يلق فيها نجاحا وانما حاز نجاحا في اشتراكه في التزام اعشار قضائي جبلة واللاذقية . وفي عام ١٨٧٢ تولى ادارة قنصلية اميركة لداعي رجوع القيس قنصل الدكتور متيني الى وطنه . ولكنه ما لبث ان استعفى منها عام ١٨٧٥ . وانخرط في سلك رجال الحكومة عضوا في الحكمة الابتدائية وظل فيها الى آخر ايامه .

مؤلفاته وآثاره

في عام ١٨٦٩ طلبت اليه الرسالة الاميركية نظم المزامير مع ابقاء المعنى الاصلي والتحيد فاتمه سنة ١٨٧٤ ثم اضطر الى السفر الى مصر على طلب الرسالة ليشرف على طبعه حيث بقي عاما كاملا . وشرع في تأليف تاريخ نفيس مطول لوطنه اللاذقية عام ١٨٧٣ فبقي مخطوطا الى الآن في ثلاثة مجلدات وقد حوى تاريخ هذه البلدة منذ انشائها الى ايامه ودعاه «آثار الحقب في لاذقية العرب» ولما كان من ارباب القانون ومن المتضلعين منه قد عرب عن التركية والفرنسية كتبا قانونية وتاريخية كالدستور الهمايوني وقوانين الدولة وغيرها وكلها لا تزال مخطوطة ولم يطبع من مؤلفاته سوى خطبة له في حقيقة التهذيب نشرت في المطبعة العمومية

بيروت سنة ١٨٦٦ وديوان شعر عني بطبعه ولده . رفيق افندي عام ١٩١٠ في اللاذقية .

شعره

شعر الياس صالح كأكثر شعر القرن الماضي لا يخرج عن حدود القديم المعلوم من مديح ورثاء وغيره مما هو ليس شعرا موضوعيا كما يجب ان يكون الشعر العصري ولا يخفى علينا ان من واجبات الناقد ان يراعي في نظره الشاعر وزمانه ومحيطه وعليه كان الياس صالح في محيط لا يخرج كله عن الطور القديم وكثيرا ما نراه لا يطرق الشعر إلّا لدى طلب منه مديح وتهاني ورثاء وتأريخ لمولود وسواه وقد وصفه محمد بك بيهجت — المدير الثاني للمدرسة السلطانية في بيروت المنتخب مع رفيق بك التميمي مدير مدرسة التجارة فيها في اثناء الحرب وقد انتدبهما عزمي بك والي بيروت حين ذاك لوضع تقويم طويل عن ولاية بيروت وملحقاتها — بوصفا يستدل من ورائه انه لو لم يكن في ذلك المحيط بل في محيط آخر لكان له شأن يذكر قال : « وقصاري القول ان الياس صالح شعر في حياته بكثير من الهياج وحاول جهده ان يبثنا اياه ويطلعنا عليه ولهذا يجب على اللاذقيين عامة والمسحيين منهم خاصة ان لا ينسوا اسمه لانه استطاع تحريك الاحساسات التي تخفق لها قلوبهم وتقريرها . وقدر على نقل عالمهم الروحية وتثبيتها . »

هذا مجمل ما وصفه به محمد بك بيهجت وزميله وها اننا نأتي بامثلة من شعره فيما يلي لمختلف الاغراض ومتباين الغايات وللقراء الكرام الحكم .

❀❀❀

كان الشاعر متصلا باكثر ادباء وشعراء عصره بالمراسلات الشعرية ومن أصدقائه فرنسيس مراش الحلبي شاعر حلب والسيد احمد وهبي ونقولا بك نوفل وسواهم واكثر مراسلاته كانت مع المراش ودونك قطعة من رسالة له استهلها بالنسيب كعادة الكثير من شعراء العربية قال :

حمام تصبو يا فؤاد وتكلف ! وتكلف العسين البكاء تذرف ؟
وتميل نحو الغانيات فتنثني عنها وانت من المعاطب متلف ؟

فدتك من تلك القدود ذوابل ! وتناهبتك من العيون الاسيف ؟
وتجاذبتك الغيد حتى قد غدت بك كل خود في الهوى تتصرف ؟

واحتط على هذا المنوال قدرا تطرق بعدذلك الى ذكر شمائل مراسله :

رب الفصاحة ! من بسحر بيانه بهر النهى البدر الذي لايخسف!
فرد ، اذا لمس اليراع بنانه تلقاه ، وهو لنا حسام مرهف
بحر خضم ، قد غدت امواجه كرما ، لنا الدرر اليتامى تقذف

وذهب بعدئذ الى الثناء والمديح :

لك طيب ذكر يا ابن مراش غدت ارجاؤنا من عرفه تتعرف
نثرت علينا من صفاتك جلية آذاننا اضحت بها تتشنف !

ثم انتقل الى نشر المراش ديوانه المعروف « بوق المحبة » فنقد احمد العمري الموصلي ، واعترض عليه ، فرد عليه صالح ، بقصيدة عصماء لم ينجح فيها منحى الابتذال والسقط في الكلام ، بل اتقد العمري وابان فيها اغراضه وضعف انتقاده ، وافتتحها بحكم مليحة ذات روعة ، قال :

زنة الكلام ، اذى وجوب مقال قبل الكلام ، من صفات كمال
واخو النهى ، من لايجرد ابيضا قبل التفكر في انتهاء قتال
فاربما قصد الوبال لغيره رجل ، فالقى نفسه بوبال !
ما الحزم إلا بالتأمل ، انما عدم التأمل ، خيبة الامال !
والعلم ليس بصادق ان لم يكن متقارن الاقوال ، والافعال
فاعمل قول المرء قول اخي حجا والفعل ، فعل العاظم الجهال !
للناس اطباع ! فكل يقتفي ضربا من الاهواء والاميال

وانتقل الى ذكر مراش وبوقه :

فرد ، غدا بذكائه عسرا على الايام ان تأتي له بمثال ؟
متوقد الافكار يمحو نورها في كل خطبة ظلمة الاشكال
صاغ القريض فرائدا منظومة جيد الزمان ، بها تبدى حالي

❁❁❁

اوماسمعت له دويا من صدى؟ « بوق المحبة » للبرية قال !

بوق له صوت ينادي في الملا بالحب ، يفصح عن بديع مقال

في شطرها الباقي ، انتحى الرد على العمري :

قل للمساند من اتى متعرضا جهلا له ، ابشر بشر نكال

عرضت نفسك للمهالك عنوة وافيت تقسم غابة الرئبال

❀❀❀

جردت هندي الحسام محاولا حربا ولست ترى من الابطال

وبرزت تدعو للنزال ولم تكن لتطيق يوما ، حملة بنزال !

فبم اغتررت بلا ارتئاء تاركا سبل الفطانة ، حابط الاعمال ؟

❀❀❀

اني اراك فقدت حزمك حينما غرتك غيبته ، عن الاطلال

أفما دريت ؟ بان شوق سواعد يضحي ببعد مثل قرب حبال !

وبانه ان غاب عنك فكم له من صاحب حامي الذمار موالي !

لاغرو ان لم يتجل لك صافيا نظم له اشهى من السلسال !

فلقد بدوت لنا سقرا شاهدا بفساد ذوقك في صريح مقال

وختمها بهذه الابيات :

عار عليك بما اتيت لنا به في مدح نفسك من سنى الاموال !

ليس الفتى من زان يحسب نفسه متسلحيا بالعلم والافضال

بل من يبيت القوم يشهر فضله فيذاع في الاسحار والآصال

واذا رأيت فتى تصلف معجبا بالنيه فاحسبه من الجهال !

فالعالم السامي الحجا من لم يكن من عجزه ياصاح في اغفال

فاعلم وذو الدعوى يثوب بخيبة ويصفع وجه لا يصفع قذال !

واتفق انه حين كان في مصر ، اقترحت عليه « جمعية بطركخانة الروم الارثوذكس » مدح خديوي مصر . اسماعيل باشا ، لمكرمة اسداها اليها . فلبى الطلب ونظم قصيدة ذكر فيها افضال الخديوي وقدمها اليه . قال :

البشر في قطر مصر فاح عاطره واليمن قد نورت فيه ازاهره

والسعد غرد في روض النجاح على اغصان ايك الهوى والصفو طائره

فطر رعته فاضحى السعد يخدمه عين الخديوي واحيته مآثره
مولى على اثيل المجد باذخه شديد عزم سديد الرأي باهره

❁❁❁

بظله عم مصر الخير منتشرا وكل شأو به قرت نواظره

وذكر فضل الخديوي وما انشأه من المدارس . وعدل فذكر فضله على الارثوذكس والمدرسة التي انشأها لهم قال :

قد عم احسانه كل الانام وقد جرى على فقراء الروم وافره
قامت بالائه الفقراء مدرسة لهم بها شكره رنت مزاهره
لايحصر الوصف افضالا له غزرت ولا يقوم بحق الشكر شاكره!

ولما توفي المرحوم العلامة سليم البستاني . وكان من معارفه ، رثاه بهذه المرثية الحكمية . قال :

يبدي لنا الدهر من احكامه عبرا في كل يوم وكم يجري لناعبرا !
ونحن نغتر بالدنيا وزخرفها دوما وناهو واسنا نذكر الخطرا!
كأننا لسنا نرى انفسنا بشر عقباه الموت طال العمر او قصرا!
لا المال! كلا! ولا المجد الرفيع! ولا شرخ الشباب نرا يدفع القدرا !
كم سيد ماجد تحت التراب ثوى؟ وكم فتى اروع يحويه جوف ثرى؟

❁❁❁

لا كان يوم ، به الناعي نعى اسفا انسا سليما ! فاجرى دمعنا مطرا!
فالله ابدي الردى نورا مباغتة وعفرت في الثرى جثمانه النضرا

❁❁❁

تبكي عليك بنو الآداب قاطبة اسى وترثيه اهل الفضل والشعرا
كذا الطروس تردت بالحداد على من كان يلبسها من نسجه حبرا
والشعر والنظم والانشاء قد حزنت عليه اذ كان يجلوها انسا غررا
ناحت عليه المعاني ! فهو مبرزها فنائسا تدهش الالباب مبتكرا
وقد بكته زواهي اللفظ نادبة ! اذ طالما فاخرت في نطقه الدررا
واوجع الموت عرب الشام مع عجم لما طواه وابكى البدو والحضرا

لئن يكن قد قضى نحبا فما برحت آثاره الغر تحيي ذكره العطرا
فكم له في فنون العلم من اثر! ما مات من في الورى ابقى له اثرا!

ومن الخطبة التي انشأها وطبعها في بيروت في التهذيب هذه الابيات اختتمها بها وكلها حض على التعلم الذي دعا اليه كثيرا . قال رحمه الله :

فجر العلوم على ارجائكم طلعا فبهوا منكم الطرف الذي هجعا !
وشاهدوا الكون في هذا الزمان تروا نور التهذب في اقطاره سطعا
لا يقطن المرء اذ قد جاز سن صبا فالعلم يفتح ابوابا لمن قرعا
وليس للمرء من فضل يزان به ان لم يكن في نهاه للعلوم وعى
فالعلم للعقل مثل الحد في عمل السيف والسيف لولا الحد ما قطعا
ليس التهذب في تقليد من سبقوا الينا ان لم يكن بالعلم قد شفعا

وكان متدينا ورعا تقيا وقد اقترحت عليه كثير من كرائم سيدات موطنه اناشيد في مدح السيدة العذراء (عليها السلام) فاجاب الاقتراح واباهن في ما طلبن فنظم لهن عدة اناشيد تسابيح فيها من جهة اللغة والاعراب ووقعها على وزن اغاني شائقة موسيقيا

وفاته : تأبينه ـ رثاؤه

عبث المرض بجسمه النحيل ، ولعب به الداء ، وما كان ليحتمله ، فسقط عياءا واذا الموت يواقيه صباح الثلاثاء لمنتصف ايلول سنة ١٨٩٥ فاودع الروح باريها بعد جهاد طويل قضاه يبارك الزمان ، ويطالب لوطنه الفلاح . وفي عصر ذلك اليوم بعد ان صلي عليه وقف المرحوم الدكتور سليم الجريديني وابنه فالشاعر الناثر اسعد خليل داغر ، فالمرحوم سامي كومين تأبينا مؤثرا بليغا ومن ثم اودع الثرى .

يسقي ثراه الغيث ، ما جن الدجى والشمس ما طلعت وما سفر القمر

رحمه الله رحمة واسعة .

بركات (السودان) ميشيل سليم كعيد